ما سر حب أهل البيت(ع)؟

بحث تحليلي في الأسباب المذكورة في النصوص الحديثية

يلحظ المرء بشكل ملفت ذلك الحبّ لأهل بيت النبي(ص)، والذي يملأ قلوب مجمل أتباع أهل البيت ومواليهم، والذي تترتّب عليه العديد من النتائج الملفتة الهامة على المستوى السلوكي، والعاطفي، والتربوي، والمعنوي، والإيماني... بحيث يصعب على سببٍ آخر سوى إكسير الحب ذاك، أن يفعل هذا الفعل، وأن يثمر تلك الآثار، ويوصل إلى تلك النتائج.

ومن هنا كان السؤال مبرّراً عن سرّ ذلك الحبّ المشتعل في قلوب الكثير من المسلمين من أتباع أهل البيت(ع) وغيرهم: كيف أتى؟ ما سببه؟ وهل من تفسير لتلك المشاعر الصادقة، والعواطف المخلصة، والمودّة الصافية لأهل البيت(ع).

إذا ما راجعنا مجمل آيات القرآن الكريم والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت(ع) في هذا الخصوص، يمكن أن نخلص إلى الأسباب التالية:

1- **الأمر بحبهم:** أي إن الله تعالى قد أمر في القرآن الكريم بحبّهم. يقول تعالى: ﴿**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[1]، وكذلك أحاديث النبي(ص) وأوامره الكثير بحبهم كقوله: **"أحبوا أهل بيتي لحبي"**[2]، ولا شك هنا بمدخلية هذا السبب، وإن كان الأمر بمجرده لا يصنع حباً.

2- **مكانتهم عند الله تعالى ورسوله(ص):** بمعنى أن لهم مقاماتهم عند الله تعالى، ومناقبهم، وفضائلهم العالية المعنوية، والعلمية، والأخلاقية.. ومن هنا يمكن أن ننظر إلى هذا المعطى من زاويتين:

الأولى: بما أن لهم ذلك الموضع من رسول الله(ص)، وتلك المناقب والكمالات من الله تعالى، فمن أحبّ الله تعالى، أو أحبّ رسوله، لا بدّ أن يحبّهم.

الثانية: أن الإنسان مفطور على حب الكمال، فعندما يجد أن أعلى مراتب تلك الكمالات الإنسانية، وأوسعها، تجلّت في إنسان ما؛ أحبّه.

1- سورة الشورى، الآية: 23.

2- علي النمازي الشاهرودي، مستدرك سفينة البحار، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1419 هـ.ق، ج 1، ص 232.

ولعلّ هذا ما قصده الإمام علي(ع)، عندما ربط بين حبّ الله تعالى وحبّهم، إذ يقول: **"من أحبّنا فقد أحبّ الله"**[1]. أو عندما ربط النبي(ص) بين حبّهم وحبّه. فقد جاء عنه أنه قال: **"من أحبّ هؤلاء فقد أحبّني"**[2]، وذلك عندما نظر إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين(ع).

3- **المظلومية**: حيث إن المظلومية تؤدي إلى التعاطف مع المظلوم. وأهل البيت(ع) عانوا أشد أنواع المظلومية في حياتهم، وهذا ما سبّب ذلك التعاطف العارم معهم.

هنا يمكن القول إن أشدّ ما يمكن أن تفعله المظلومية هو إثارة التعاطف بمستوى أو آخر مع المظلوم، في حين أن ما نتحدّث فيه هنا، هو ذلك الحبّ الذي تترتّب عليه آثاره ولوازمه.

4- **الإيمان**: بمعنى إن من يصل إلى تلك الدرجة من الإيمان، لا بدّ أن يحبّ أهل البيت(ع)، ويتجنّب بغضهم. وقد دلّت على هذا المعنى روايات كثيرة، منها ما جاء عن الإمام علي(ع)، حيث قال: **"ممّا عَهِدَ إليّ رسول الله أنه لا يبغضني إلا منافق ولا يحبّني إلا مؤمن"**[3]. وهذا ما قد ينسجم مع السبب الثاني، الذي يقوم على معرفة مناقبهم وكمالاتهم. لأنه إذا كان الإيمان يقوم على المعرفة، فإن المرء بمقدار ما يزداد معرفة بالله تعالى ورسوله، لا بدّ أن يعرف أهل بيت الرسول(ص). ومن عرفهم حق معرفتهم، لا بدّ أن يحبّهم.

5- **طيب الولادة**: حيث تربط جملة من الروايات الواردة عنهم(ع) قضيتي الحب والبغض بطهارة المولد، وخبث المولد. بمعنى أن من طابت ولادته، لا بدّ أن يحبّهم. ومن خبثت ولادته، لا بدّ أن يبغضهم. وقد جاء عن النبي(ص): **"لا يحبّنا إلا من طابت ولادته، ولا يبغضنا إلا من خبثت ولادته"**[4].

وهذا المعطى يقوم على رؤية أوسع موجودة في مجمل النصوص الدينية، مفادها أنه يوجد علاقة تكوينية بين كل من الحرام أو الحلال، وبين جملة من الآثار التكوينية التي تترتّب على ارتكاب أيّ منهما.

وإن أمكن القول إن ذلك قد يكون من العوامل المساعدة ليس إلا، لكنه قد لا يرقى إلى أن يكون ذلك السبب الذي يعطّل الإرادة، ويُلغي حرية الاختيار بالمطلق. إذ عندها قد

1- الصدوق، الأمالي، مؤسسة البعثة، قم، 1417 هـ ق، ط 1، ص 563.

2- إبن عساكر، ترجمة الإمام الحسين(ع)، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم، 1414 هـ ق، ص 131.

3- أحمد بن حنبل، مسند أحمد، دار صادر، بيروت، ج 1، ص 84.

4- الصدوق، علل الشرائع، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، 1966 م، ج 1، ص 141.

يُقَال ما ذنب المولود من الزنا من دون اختيار، حتى ينزلق إلى بغض أهل البيت(ع)، وما يترتب عليه؟

6- **الفضيلة وطيب المعدن:** وقد جاء في هذا المعنى ما قاله الإمام الصادق(ع): **"والله لا يحبّنا من العرب والعجم؛ إلّا أهل البيوتات، والشرف، والمعدن. ولا يبغضنا من هؤلاء وهؤلاء إلّا كل دَنِس، مُلصق"**[1].

وهذا المعنى ينسجم مع ما جاء في السبب الثاني والرابع، أن أهل البيوتات والشرف؛ التي تقدّس الفضيلة، لا بدّ أن تحبّ من كان الأسمى في الفضائل والمناقب، شرط أن تعرف أنه كذلك. كما ينسجم أيضاً مع ما جاء في السبب الخامس، حيث إن هذه الرواية تضمّنت أيضاً الإلفات إلى طيب الولادة وخبثها.

7- **الميثاق والوديعة:** وهي تربط الحب بالخلقة، وتعيده إلى يوم الميثاق. حيث قال رسول الله(ص) لعلي(ع): **"إن الله أخذ ميثاق المؤمنين على حبّك، وأخذ ميثاق المنافقين على بغضك، ولو ضربتَ خيشوم المؤمن ما أبغضك، ولو نثرت الدنانير على المنافق ما أحبّك"**[2]. وقد جاء في هذا المعنى أيضاً قول رسول الله(ص): **"استودَع الله حبّي وحبّ أهل بيتي وشيعتهم في قلوب مؤمني أمتي"**[3].

8- **فعل الله تعالى:** حيث توجد جملة من الروايات تبيّن أن هذا الحبّ هو من الله تعالى، فهو كتابة الله تعالى، يقول الإمام الباقر(ع): **"إنّما حبّنا أهل البيت شيءٌ يكتبه الله في قلب العبد"**[4]؛ وهو صنع الله تعالى. يقول الإمام الباقر(ع): **"إنّ هذا الحبّ الذي تحبونا، ليس بشيء صنعتموه، ولكنّ الله صنعه"**[5]. كما هو عطاء الله تعالى، حيث جاء عن الإمام الصادق(ع): **"إنّ حبّنا أهل البيت ينزله الله من السماء من خزائن تحت العرش"**[6].

1- الشيخ الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، 1362 هـ ش، ط 4، ج 8، ص 316.

2- الشيخ الريشهري، أهل البيت في الكتاب والسنّة، دار الحديث، قم، 1375 هـ ش، ط 1، ص 400.

3- الشيخ الكليني، الكافي، م. س، ج 2، ص 46.

4- الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم، 1990 م، ط 1، ج 2، ص 330.

5- البرقي، المحاسن، دار الكتب الإسلامية، طهران، 133. هـ ش، ج 1، ص 149.

6- ابن شعبة البحراني، تحف العقول عن آل الرسول(ص)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1404 هـ ق، ط 2، ص 313.

إجمال وتحليل:

قد يصحّ القول، إن مجمل تلك الأسباب، التي عرضت لها روايات أهل البيت(ع) في تفسيرها لحبّهم الكامن في قلوب المؤمنين، يمكن أن تصنّف ضمن هذا التصنيف، إذ إن البعض من تلك الروايات يعتمد التفسير ذي البعد الغيبي للحبّ، حيث تفسّر حب أهل البيت(ع) بأنه عطاء الله تعالى، وصنعه، وكتابته في قلب العبد. وهذا التفسير لا يتنافى مع الرؤية الإسلامية العامة، لأنه ليس المراد بنسبة هذا الأمر إلى الله تعالى إخراجه عن اختيار الإنسان، ومسؤوليته، ومحورية الإرادة الإنسانية في الفعل والاختيار؛ بمقدار ما أن المراد بتلك النسبة، هو إدراج مقولة الحب تلك في الرؤية التوحيدية للكون ومجرياته، بما يعطي ذلك الحب مكانته الإلهية، وما يترتب عليه ذلك من آثار معنوية وتربوية.

كما يندرج في هذا التصنيف تفسير الحب بالميثاق والوديعة وربطه بفلسفة الخلقة. وهو أيضاً لا يتنافى مع الثوابت الدينية ذي الصلة؛ لأنه إن قيل أين مقولة العدل الإلهي في هذا المورد؟، فيمكن الجواب بأن الله تعالى – كما في جميع القضايا التي ترتبط بهذا الجانب – قد علم من هؤلاء قبل خلقهم قادم فعلهم، فأسلفهم الميثاق، واستودع في قلوبهم حبّ رسوله، وأهل بيته.

وهناك التفسير ذي البعد التكويني (طيب الولادة). وهو أيضاً لا يتنافى مع الثوابت الدينية، والرؤية الإسلامية، من جهة محورية الإرادة والاختيار، ومقولة العدل الإلهي. لأن التولّد من الحرام، قد لا يرقى على أن يكون مجرد عامل من العوامل، التي لا تتجاوز حرية الإرادة، ومسؤولية الاختيار، ليس إلّا.

وهناك التفسير ذي البعد القيمي، الأخلاقي، التربوي (أهل البيوتات والشرف). وهو تفسير ينسجم مع المنطق القيمي، لأنه يمكن القول ببساطة بأن من أحبّ الفضيلة أحبّ أهلها، فكيف بمن كان منبع الفضائل كلها، وإليه تعود.

وهناك التفسير ذي البعد الإيماني المعرفي (الإيمان ومعرفة مرتبتهم عند الله تعالى ورسوله). وهو تفسير يحمل قوة منطقه، لأن الإنسان - من جهةٍ - مفطورٌ على حب الكمال – طالما حافظ على سلامة فطرته -، ولأن الإيمان - من جهة أخرى - يقوم على المعرفة. وعليه، من عرف مقامهم عند الله تعالى، وموضعهم من رسول الله(ص)، لا بدّ أن يحبّهم، إذا ما كان يمتلك ذلك الإيمان الخالص لله تعالى، وتلك الفطرة السليمة.

وهناك التفسير ذو البعد الوجداني، أو النفس-اجتماعي (المظلومية). ولعلّ تلك المظلومية إحدى العوامل المساعدة، لكنّه لا يمكن الاقتصار عليها وحدها في تفسير قوَة الحبّ تلك، وفلسفتها، وآثارها.

وهناك التفسير ذي البعد الديني التكليفي (الأمر بحبّهم). ولعلّه لا يلامس جوهر ذلك الحبّ وإكسيره، وإن كان يعبّر عن ضرورة تحصيل تلك الحقيقة، وتهيئة جميع مقدّماتها، باعتبار كونها مطلوبة عند الله تعالى ورسوله.

وفي ختام هذه المقالة، يمكن القول بأن جميع تلك التفاسير إنما تعبّر عن حقيقة واحدة، تملك وجوهاً متعدّدة، حيث إن كلاً من تلك التفاسير يلحظ وجهاً من وجوه تلك القضية، وبعداً من تلك الأبعاد النفس-اجتماعية، أو القيمية والتربوية، أو الإيمانية والمعرفية، أو التكوينية، أو الغيبية.. وهي كلّها حيثيات لتلك الحقيقة الواحدة، أي حبّ أهل البيت(ع) ومودّتهم، والتي تملك الكثير من الدلالات، والدرجات، والنتائج، والآثار في مختلف المجالات الدنيوية، والأخروية. وإن كنّا اقتصرنا في هذه المقالة على تحليل جملة أسبابها، التي تضيء على منبع ذلك الحبّ، وتفسيره، وفلسفته.